ثلاث نصائح إلى "لبناني موديل 2018"

لقمان سليم

"وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبارِ مَنْ لَمْ تُبِعْ لَهُ
بَتّاتًا وَلَمْ تَضْرِبْ لَهُ وَقْتَ مَوْعِدِ"
طرفة بن العبد

مواطني/ مواطنتي العزيز(ة) - مبروكٌ نيلك الجنسية اللبنانية، وأهلًا وسَهلًا ومرحبًا بك في النّادي اللبناني.

أرَحِّبُ بك ولو أنَّ ترحيبي هذا أدنى ما يكون إلى الإسهاب، بالمعنى البلاغي للكلمة، أي بساطة في القول لا تتحصل منها زيادة على المعنى المقصود: فلو لم تكن عليمًا بصيرًا بالقواعد المعمول بها في هذا النادي، أي لو لم تكن "لبنانيًا" على نحو ما، لما أفلحت، أصلًا، في أن تجد طريقك للانتساب إليه من طريق مرسوم رئاسيٍّ لا شك عندي بأنَّكَ تابَعْتَ بمرح ما استثاره من شؤون ومن شجون ومن سجال.

مع تسليمي، إذًا، بأنَّ لبنانيتك سابقة على نيلك الجنسية اللبنانية، لا بأس، وقد نلت حظوة الانتقال من اللبنانية المجازية إلى اللبنانية على معنى الحقيقة، أن نتأمل معًا في هذه اللبنانية وما يترتب عليها من مترتبات.

أقدِّر، ولا أخالني أخرف، أنك لا تحب اليوم، ولن تحب في غدٍ أو بعده، أن تُذَكَّرَ بالظروف التي نلت في ظلها الجنسية اللبنانية. ولو كنت محلك لفعلت فعلك، فاستكرهت ذلك وتوجست من وراء التذكير بذلك نيةً سيئةً أو ما هو شرٌ من ذلك... ولكن رويدًا يا صاحبي: آخر هَمّي أن أذكِّرَكَ بالحَيْثيّات التي رافقت إصدار المرسوم الذي رسمك لبنانِيًا من قبيل أنَّه وَقَعَ في لَيْلٍ أَلْيَل، وأنَّ التعمد في حجب تفاصيله عن اللبنانيين لم يزدهم إلّا شَكًا في استحقاق مَنْ منحوا الجنسية اللبنانية لها، وأنَّ التقرير الذي رفعه أحد كبار الأمنيين إلى أصحاب التوقيع على المرسوم المذكور أكد الشكوك التي حامت حوله، وأنَّ السِّجالاتِ التي كان انكشافُ أمر المرسوم مناسبة لها أطلقت ألسنة هواجس لا تغمض عنها عيون بعض اللبنانيين، ولا ولا... لا غافِلًا عما تزاحم من شائعات مدارها على مقادير الرشى التي دفعها فلان أو فلان، ولعلك منهم، لقاء إدراج أسمائهم في عداد المحظوظين، - نعم: آخر همي كل هذا، وفي أية حال فلات ساعة تذكير... وإنَّما أريدك، في منأى من أية نية سيئة، أن تعترف بينك وبينك أنك ولدت للبنان، شأن الكثرة الكاثرة مِنَ اللبنانيين، تحت برج الاندساس والتسلل... (وأسارع إلى الاستدراك: أقول الكثرة الكاثرة، وفي نفسي أن أعمم، وأن أقول - لولا حذري الرّاسخ من التعميم في هذا الشأن وفي سواه - كل اللبنانيين بلا استثناء).

لا أحَدَ، لا أحد على الإطلاق، يَجِبُّ أن يَنسب إلى التسلل أو إلى الاندساس، أو أن يثبت عليه فعل التسلل أو الاندساس... ويصح ذلك على لاعب كرة القدم الذي يَطْبَقّ عليه قرب خط المرمى، كما على المتظاهر الذي يلتحق بمظاهرة فيشتبه منظموها به، وبأنّه ينافق في حمله لواء القضية التي يتظاهرون من أجلها، كما على العابر الحدود بدون جواز سفر أو تأشيرة، كما على المنتحل مهنة لا يتقنها، وعلى كل هؤلاء قس وتخيل ما يمكن أن يكون عليه حال من يَتَّهم بالتسلل إلى صفوف قوم ومستنده وثيقة لن يَخْلوَ أن يَعَيَّرَ بالظروف التي أحاطت بحصوله عليها... من ثم نصيحتي لك، ولو كنت أحد أولئك الذين يَقالُ بأنَّ سجلهم العدليَّ حافل بالارتكابات - أن تردَّ الصاع صاعين وأن ترد على من قد يقدح في لبنانيتك، أو يَعَيِّرَكَ بظروف اكتساب الوثيقة التي تثبتك لبنانيًا، قدحه وتعييره بسؤاله، هو، كيف صار لبنانِيًا؟ ولا تتهيبن الموقف أو تستشقن الأم! فلعلك تعرف يا عزيزي أو لا تعرف أنَّ تهمة التسلل إلى ملكوت "اللبنانية"، والاندساس فيها، ليست وقفًا على الأفراد بل هي تهمة تسري على الجماعات أيْضًا. وحسبك أن تمرن نفسك على أصول التنابذ في الأصل والفصل والمحتد بين اللبنانيين، وما يستحضره هذا الفريق من "اللبنانيين" أو ذاك في تلبنن هؤلاء اللبنانيين من مواطنيهم أو أولئك، لتتيقن أن اتهام الواحد من الناس، أو الجماعة، في لبنانيته/ لبنانيتها ليس مما ينفك عمن تلحق به التهمة، بل لقد تتحوَّل هذه التهمة إلى هوية سياسية، جلابة مدح وذم، بكل ما لكلمتي مدح وذم من معنى.

وليس هذا فحسب، فضف إلى ما تقدم، أو بالحقيقة تذكَّر، حيث إنَّ الأمْرَ من البديهيات، أنك بنيلك الجنسية اللبنانية إنما تلتحق بإحدى هذه الجماعات التي يطلق عليها في بلدنا، بلدك أعني وبلدنا، مسمى "الطوائف التاريخية" ولا تلتحق بـ"شعب" مجرد منسوب إلى بلد هو لبنان.

من ثم فنصيحتي الثانية لك، سواء أكنت متدينًا عن حق وحقيق أم لم تكن، ألا تستخف على الإطلاق بهذه "العِلاوَة على الجِنْسِيَّة" وألّا تستهين بما قد تعينك عليه في رد غائلة المشككين بلبنانيتك: فإن كنت مسيحيًا، لأيَّة طائفة انتميت، فلا تتردد عن مواجهة من يتهمك في لبنانيتك بأن لبنانَ ناقص "المسيحيين"، صفر على الشمال وبأنَّ المستفيد الأوَّل من تلبننك هو غير المسيحيين، وإن كنت مسلمًا، لأيَّة طائفة انتميت، فلا تتردد عن مواجهة من يتهمك في لبنانيتك بأنَّ الأولى بـ"المسيحيين" أن يَستدركوا على توهماتهم، وأن يَسَلّموا بأنَّ التاريخ قد صحَّح نفسه بنفسه، وأن يبوسوا أيديهم وجوهًا لأقفية وأقفية لوجوه أنَّ لبنان ما يزال يتَّسع لهم.

فطالما أن هذه "العِلاوَة على الجِنْسِيَّة" تمنحك حقَّ الصدوع باسم هذا الدين أو هذه الملة أو تلك فلا تتردد في استعمالِ هذا الحق، بل من الحماقة أن تتردد في استعماله؛ فالمشاركة، ولو بالنية أو باللسان، وهما أضعف الإيمان، في منازعات اللبنانيين، مواطنيك، أخصر طريق إلى الاندماج الكامل - ومن يدري، فلعل الحظ أن يبتسم لك فيتحول هذا التنازع، عَمّا قريب، أو ذاك، إلى حرب صغيرة، أو ما يُعادِلُ الحرب، ويكتب لك أن تُشارك في هذه الحرب، أو أقَلّه أن تشارك في بلسمة جراحها وفي محو آثارها حيث إنَّ "عمل الخير" أقرب طريق إلى الوجاهة، والوجاهة، إن كنت من هواة الصنف، مرقى من مراقي التسلل إلى الشأن العام...

بخلاف بلدان أخرى تجعل من اكتساب جنسيتها شيئًا من قبيل "السُّلوك" أو "السفر"، بالمعنى الصوفي للكلمة، يقتضي من الطامح إليها أن يتعلم لغة البلد، أو أن يلم بشيء من تاريخه، أو لا يكتمل إلّا بموجب شعيرة علنية ما مِنْ مِثْلِ قَسَمِ يمين، جهارًا نهارًا، بين يدي عامِلٍ من عمال الدولة، على الولاء له، - بخلاف ذلك لا يشترط لبنان، بشهادة حصولك على الجنسية اللبنانية بين ليلة وضحاها، شيئًا من هذا.

بالطبع، ليس لبنان البلد الوحيد الذي يؤثر التيسير على التعسير ولكن بما أنَّ لبنان هو ما يعنينا، فليكن هذا التيسير حجة عليه، وليكن لسان حالك، اليوم وغَدًا وفي كل يوم، أن لبنانَ شيءٌ، والجنسيَّةَ اللبنانية شيءٌ آخر: "لبنان حديث خرافة يسمر به السامرون، أمّا الجنسية فدفتر شروط واضح المندرجات، وأنا ملتزم، حتى إشعار آخر، بدفتر الشروط لا بحديث الخرافة...".

> أنك بنيلك الجنسية اللبنانية إنما تلتحق بإحدى هذه الجماعات التي يطلق عليها في بلدنا، بلدك أعني وبلدنا، مسمى "الطوائف التاريخية" ولا تلتحق بـ"شعب" مجرد منسوب إلى بلد هو لبنان

لا أعرف يا مواطني العزيز كم من جنسية في رصيدك، وماذا تؤَمِّل من وراء اكتسابك الجنسية اللبنانية، ولا يعنيني، في الحقيقة، أن أعرف. على أنه، لا بأس لك أن تفطن بأنني لم أَسْدِ إليك نصائحي هذه بالمجان بل عرفانًا بالجميل: "شدة القرب، على ما يقول بعضهم، حجاب" والأرجح أن أحوج ما يحتاجُ إليه لبناني من شاكلتي، لم يكدح في سبيل لبنانيته، أن تمتد يَد فترفع حجاب قربه من لبنان وتذكره بأنَّ لبنانَ على مرمى مرسوم أو أقل!

[أمم للتوثيق والأبحاث]